مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 10 عدد: 4 السنة: 2021
ص: 657 - 668 | E ISSN: 2600-6634 ⁄ISSN:2335-1586

مفاهيم لسانيات النص في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي.

The Concepts of Text Linguistics in Al-Rafai's the language of the Quran and the Prophetic Eloquence

منور عائشة[1*]، د. فريحي مليكة[2]

MENOUER AICHA[1], FRIHI MALIKA [2]

جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم/الجزائر.

University Abdel Hamid Ben Badis- Mostaganem/Algeria.

menouer75.aicha@gmail.com[1] / Frihi-malika@yahoo.fr[2]

تاريخ الإرسال:2020/11/05	تاريخ القبول:2021/06/24	تاريخ النشر : 2021/11/04

مُلَخَّصُ البَحْثِ

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن مفاهيم لسانيات النص في إعجاز القرآن والبلاغة النبـوية للرافعي، وقد اعتمـدنا في تحـليل هـذا الموضوع على مفهومـه لنظرية النظـم، وأشـرنا إلى أهم معاييـر النصية التي وردت في محتوى مؤلفه، وخرجنا بنتائـج مفـادها أن الرافـعي قد عالـج فكرة النظم بفهم خاص، وأن معايير النصية في كتابه قد توافقت مع مصطلحات علم اللغة النصي.

الكلمات المفتاح : إعجاز؛ نظم؛ نص؛ إيقاع موسيقي.

Abstract :

The present research paper attempts to reveal the concepts of the linguistics of the i'jaz in the texts of the Qur'an along with the rhetoric of prophetic texts by Al-Rafai. The rationale of this research is based upon the theory of linguistic systems as a new basis for analysis in comparison to the earlier theories of his predecessors. The aim is to demonstrate and put forward the new analytical theories, mostly the linguistic systems, as revealed and suggested in al-Rafa'i's book.

Keywords: i'jaz; systems; text; Musical rhythm.

مقدّمة:

* منور عائشة: menouer75.aicha@gmail.com

تعتبر نظريّة النّظم من النّظريات اللّغويّة الّتي أعطت رونقا جديدا للدّراسات اللّغوية، حيث نقلتها من قوقعة الجملة إلى انفتاح كبير من خلال نحو النّص الذي أفاد من نحو الجملة، مبنى ومعنى. وأفاد أيضا من علوم أخرى .

ولقد اعترف مصطفى صادق الرّافعي(1880م ـ 1937) في كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة" بأنّه ليس أوّل من قال بهذه الفكرة، والكلّ يعلم أنّ هذه النّظرية قد تناولها السّابقون في دراستهم،كل من وجهة نظره الخاصّة، ولقد أرسى قواعدها الإمام عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) في كتابه" دلائل الإعجاز"، ولكن ذلك لا يمنع من القول بأنّ الرّافعي قد تناول النّظم بمقتضى إدراكه وتذوّقه له، وقد أشار إلى نظرته للنظم حسب تصوره، فكانت الأعمّ والأشمل حسب رأي بعض الدّارسين.

ولما كانت لسانيات النّصّ تعنى بدراسة النّصوص كوحدة لغويّة كبرى، كان لابدّ من الوقوف على مختلف المفاهيم اللّسانية النّصيّة الّتي اعتمدها الأديب في دراسته لإعجاز القرآن والبلاغة النبويّة، فما هي معايير النّصية التي قام عليها كتاب إعجاز القرآن للرّافعي؟ وهل يمكن القول بأنّ الكاتب قد استطاع أن يوظّف آليات في تحليله للنّصوص وفق معايير لسانيات النّص الغربيّة الحديثة؟ ومن أجل ذلك سيتمّ الكشف عن هذه المعايير وعن مفهوم النّص عنده، إضافة إلى الحديث عن رؤيته للنّظم وما هو الجديد الذي كان في حوزته؟.

أولا- إعجاز القرآن:

يلاحظ المتفحّص لكتاب"إعجاز القرآن" للرّافعي، أنّه لم يحفل كثيرا بالأمثلة التّطبيقيّة مقارنة مع كتب الإعجاز عند السّابقين، ولكن في القلّة الّتي أوردها إضافة إلى الدّراسات النّظريّة الّتي قدّمها نلمس مدى اتّساع فكره وبعد رؤيته، ولابدّ بأنّ الرّجل قد نحا نفس اتجاه الجرجاني عندما ألّف كتابه"أسرار البلاغة"، حيث أنّه جعل الدّراسات التّطبيقيّة لإعجاز القرآن في كتاب آخر سماه"أسرار الإعجاز"، في هذا الكتاب حشد"أمثلة قرآنيّة بيّن فيها أسرار إعجازها في اللّفظ والمعنى والفكرة العامّة، وسمّاه"أسرار الإعجاز"، تماما كما حاول عبد القاهر من قبل في "دلائل الإعجاز"و "أسرار البلاغة"، ولكن شاء الله ألا يبرز كتاب الرّافعي في "أسرار الإعجاز" إلى الوجود"[1].

بيّن الرّافعي أنّ اللّغة العربيّة خالدة بخلود القرآن لأنّه "وجود لغويّ ركّب كلّ ما فيه على أن يبقى خالدا مع الإنسانية؛ فهو يدفع عن اللّغة العربيّة النّسيان الّذي لا يدفع عن شيء، وهذا وحده إعجاز"[2]ومعنى ذلك أنّ اللّغة لا يطالها النّسيان مادامت لغة للقرآن، فهي تُذكَر به، وقد أفادت من بيانه

ونظمه، فالقرآن حافظ للّغة، وقد تناول كتابه لغة القرآن وبلاغته وأوجه إعجازه وبذلك فهو يحدّد منهجه الّذي اتّبعه في هذا الإعجاز، ويبدو ذلك من خلال قوله:"فإنّنا سنقول في القرآن الكريم مما يتعلّق بلغته ويتّصل ببلاغته ويكشف عن أوجه الإعجاز فيه"[3].

ثانيا ـ النّظم عند الرّافعي:

إن الاهتمام بفكرة النّظم قديمة جدّا، وقد كان للسّابقين الفضل في تعريفه بما جادت به قرائحهم، وبيّنوا بفضل جهودهم الفكريّة المتواصلة طبيعة هذا النّظم،كلّ واحد حسب وجهة نظره، إلّا أن هذه الجهود لم تتخذ منهجا علميّا إلّا في القرن الخامس الهجري، لتكتمل تلك الصّورة وتتّضح مع عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) الّذي أبرز معالمها وأخرجها إلى الوجود والتي يرى فيها "الإعجاز القرآني مع حقيقة العلاقة الرّابطة بين اللّفظ والمعنى واللّغة والفكر، بأنّها علاقة عضويّة قائمة، يمكن إدراكها بالفكر والذوق"[4] ولأنّه عمد على خدمة القرآن الكريم وإبراز إعجازه، نجده قد ربط بين الإعجاز واللّفظ والمعنى وبين نظريّته في النّظم.

لم تتوقّف أقلام علماء الإعجاز عن الإشادة بنظريّة النّظم بل واصلوا على درب أسلافهم فقاموا بأبحاث ودراسات متأثّرين في ذلك بالسّابقين، وكذلك بما تذوّقوه وأدركوه بدورهم في دراستهم للإعجاز، "فالرّافعي مثلا، لم يحصر النّظم في توخّي قواعد النّحو مثل عبد القاهر"[5]الّذي قال:"واعلم أن ليس النّظم إلّا أن تضع كلامك الوضع الّذي يقتضيه علم النّحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرّسوم التي رسمت لك فلا تُخلّ بشيء منها وذلك أنّا لا نعلم شيئا يبتغيه النظام بظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه..."[6]فعلى هذا الأساس لم يهتم الجرجاني (ت471هـ)باللّفظ في إعجاز القرآن، ولم يول له الاهتمام نفسه الذي ذهب إليه الرافعي، فالجرجاني يرى بأنّ الألفاظ المفردة لا يقع فيها تفاضل دون أن تدخل في تركيب أو تأليف، وأنّ بلاغة الكلام لا تعود إلى ألفاظه وإنّما إلى ما بينهما من صلة الارتباط، وأنّ مدار إعجاز القرآن هو النظم، أمّا الرافعي فلم يهمل المعنى بدوره لكنه أعطى أهميّة للناحية الصوتيّة فربط الألفاظ والأصوات بالعواطف.

ويرى الرّافعي أن الكلام بالطّبع "يتركّب من ثلاثة حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلم، وقد رأينا سرّ الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذه كلّها بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة المعجزة التي قامت به؛ فليس لنا بد في صفته من الكلام في ثلاثتها معا"[7]، ويتّضح لنا بأنّ الرّافعي في دراسته للنّص وقف على العمليّة التّسلسليّة، أخذ يجزّئ الكلمات إلى حروف وما تدلّ

عليه من معان، والتي تعتبر اللبنة الأولى في النص، والجمل إلى كلمات التي هي في الحقيقة الوضعية "صوت النفس؛ لأنها تلبس قطعة من المعنى فتختص به على وجه المناسبة قد لحظته النفس فيها في أصل الوضع حين فصلت الكلمة على هذا التركيب"[8] وهو بذلك يدرس النّصّ على مراحل متتابعة من أصغر وحدة إلى أكبرها، أي من الجزء إلى الكل إنه يعترف بأنّ كتاب"دلائل الإعجاز" لعبد القاهر قد ألمّ بكل المذاهب الكلاميّة التي بنيت عليها علوم البلاغة ووضعت لها أمثلة هذه العلوم، وبذلك يقرّ بأنّ الجرجاني صاحب الرّيادة في فكرة النظم، وراح يبيّن أحد عناصر النّظم فيعرّفه قائلا: "فالحرف الواسع من القرآن معجز في موضعه لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السّرّ في الإعجاز جملته إعجازا أبديّا، فهو أمر فوق الطّبيعة الإنسانيّة، وفوق ما يتسبّب إليه الإنسان إذ هو يشبه الخلق الحيّ تمام المشابهة، وما أنزله إلّا الّذي يعلم"السّرّ" في السموات والأرض"[9].

إن سرّ الإعجاز عند الرّافعي هو في النّـظم، وجـهاته جمعها في عناصر ثـلاث: في الحروف، والكلمات، والجمل وبعدها قام بالتفصيل في كل جهة على حده مبيّنا دورها في النّظم.

1 . اتّساق ألفاظ القرآن:

ركّز الرّافعي في دراسته على الحروف وأصواتها، وبنائها عند العرب قائم على أسس متينة فامتزاجها وسرّ تأليفها في أبنيّة كلامهم يقوم على"مراعاة المخارج المتباعدة والمتقاربة وملاءمة بعضها لبعض ممّا هو حقيقة الأسباب اللسانية"[10] وبما أنّ نظرة الرّافعي للنّظم كانت أشمل ، فكان ينظر إليه مبتدئا بأصغر وحدة بنائية للنّصّ والعلائق فيما بينها، وما قد تدلّ عليه من معاني.

ويرجع اهتمام الرّافعي بالكلمة المفردة في النّظم إلى كونه يرى بأنّ "القرآن كما هو معجز في تركيبه فهو معجز أيضا في تصويره، وقد تكون الكلمة الواحدة من الجملة أو الحرف الواحد من الكلمة أبلغ في التّصوير من تركيب متعدّد الجمل والكلمات وتلك هي الرّوعة البالغة في الإعجاز"[11]فالصّوت يمثّل أصغر وحدة إيقاعيّة في الكلمة، والجرس في تركيب حروفها التي تختلف دلالاتها وإيحاءاتها للمعنى المنشود حسب القوّة أو الضّعف أو الشّدّة أو اللّين يعطيها وقعا موسيقيّا له أثر عميق في النّفس البشريّة.

لقد تناول الرّافعي النّظم في الحروف وأصواتها، متنبّها في ذلك إلى الوظيفة الدّلالية للصّوت وأثره في النّفس البشريّة، وهو بذلك يثير فكرة الإعجاز بالنّظم عن طريق الإيقاع الصّوتي للآيات لأنّ مادّة "الصّوت هي مظهر الانفعال النّفسي، وأنّ هذا الانفعال بطبيعته إنّما هو سبب في تنويع الصّوت، بما يخرجه فيه مدّا أو غنّة أو لينا أو شدّة، وبما يهيّء له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير

تناسب ما في النّفس من أصولها؛ ثم يجعل الصّوت إلى الإيجاز والاجتماع؛ أو الإطناب والبسط؛ بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها، مما هو بلاغة الصّوت في لغة الموسيقى"[12]وهو بذلك يكون قد ربط الحروف والأصوات بالعواطف، وهذا لا يعني إهماله الناحية المعنوية قائلا في ذلك:" الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية"[13].

أشار الرافعي إلى نظم الحروف أنّه ما بين مؤتلف لا تنافر فيه، وبين مختلف لا تتوافق الأصوات فيه من حيث مخارجها لأنّ هذه الأصوات"كانت معدلا لألسنة القــوم بين الاستخفاف والاستثقال، وبين اللّين في حرف والجسأة في حرف، وبين نظم مؤتلف ونظم مختلف، فانتزعوا بها وجوه التّأليف والتّركيب في ألفاظهم وجملهم على سنن لائح ونسق واضح، وأفضينا من كل ذلك إلى مخارج حروفهم وصفاتها"[14]فالتّناغم الكلّي للنّص القرآني يقوم على الحرف الذي يعتبر وحدة صوتية أساسية، ولبنة رئيسيّة في اللّفظ، وهذه الأصوات في تآلفها وانسجامها تصل إلى المتلقّي ويتمكّن هذا الأخير من التّفاعل معها لأنّها في النّهاية تقدّم لنا نصّا متّسقا ومنسجما، فأصوات الحرف"إنّما تنزل منزلة النّبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيفما اتّــفقت"[15]فهي بتركيبها المؤتــلف والمتّسـق، وبتداخل خواصها واجتماع صفاتها، يكون منها اللّحن الموسيقي، أمّا إذا كانت هذه الأصوات مختلفة، يظهر الخلل ويمجّ ذلك بتماسك النّص لأنّ كلمات القرآن قد تألّفت بهذه الحروف الّتي لو" سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر، لكان ذلك خللا بيّنا، أو ضعفا ظاهرا في نسق الوزن وجرس النّغمة، وفي حسّ السّمع وذوق اللّسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض، ولرأيت في ذلك هجنة إلى السّمع، كالّذي تنكره من كلّ مَرئي لم تقع أجزاؤه على ترتيبها، ولم تتّفق على طبقاتها وخـــرج بعضها طولا وبعضها عرضا، وذهب ما بقيّ منها إلى جهات متناكرة"[16].

ويبيّن من جانب آخر أنّ العرب في منطقهم يترسّلون كيفما اتّفق لهم، فهم لا يكيّفون الصّوت بقدر تكييفهم للحرف الّذي هو مادّة الصّوت، بحيث يتقصّد لها المتكلّم النّظم الموسيقيّ، فهم يفتقرون في كلامهم إلى هذا التّناسب الّذي يعتبر أمرا طبيعيّا في أصوات حروف القرآن الكريم فهو ليس من الموسيقى في شيء، ولكن الإعجاز يكمن في الوقع الموسيقيّ لأجراس هذه الأصوات في نفس المتلقي لهذا القرآن.

ويرى أنّ نظم القرآن فيما يخصّ الحروف وأصواتها يعود إلى ترتيب هذه الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، وهو بذلك يصنّف الحروف حسب مخارجها الصّوتيّة، فهي تتناسب فيما بينها تناسبا طبيعيّا"

في الهمس والجهر، والشّدّة والرّخاوة والتفخيم والتّرقيق؛ والتّفشي والتّكرير، وغير ذلك مما أوضحنا في صفات الحروف"[17].

وراح يبيّن بلاغة الصّوت في لغة الموسيقى، لأنّه العامل الأوّل في تلك العلاقة بين النّص ومتلقيه، فالانفعال الّذي يحدث في النّفس عائد إلى تنويع الصّوت، وقد بيّن في هذا المقام مخارج الأصوات وصفاتها مما يجعل القارئ يدركها جيّدا حتى يتمكّن من الأداء القرائيّ المحافظ على انسجام النّص القرآني، لأنّ أيّ إخلال في المبنى يتبعه إخلال في المعنى، وإذا حدث ذلك اختلت الوضعيّة التّواصليّة بين النّص والمتلقي.

ويرى أن لتلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة وقع "أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها في هز الشعور واستثارته من أعماق النفس؛ وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي أو أعجمي، حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد، ومن لا يعرفون الله آية في الآفاق ولا في أنفسهم، لتلين قلوبهم وتهتز عند سماعه، لأن فيهم طبيعة إنسانية، ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الإنسان".[18]

ويختم القول في هذا المقام، أنّ الحروف لم تكن في القرآن من خلال وصفه لها بأنفسها دون النّظر في حركاتها الصّرفيّة والنّحويّة، والّتي اعتبرها مظاهر الكلم لينتقل إلى النّوع الثّاني من سرّ الإعجاز.

2. الرّوابط التّركيبيّة للكلمات :

ينتقل الرّافعي في حديثه عن الكلمات وحروفها ليبيّن أنّ "الكلمة في الحقيقة الوضعية هي صوت النفس؛ لأنّها تلبس قطعة من المعنى فتختصّ به على وجه المناسبة قد لحظته النّفس فيها من أصل الوضع حين فصلت الكلمة على هذا التركيب"[19] ويعمد إلى تقسيم الكلمة إلى ثلاثة أصوات، وصوت النفس أولها، وهو يمثل أسباب الاتّصال بين الألفاظ ومعانيها، وبين هذه المعاني وصورها النّفسيّة، بحيث أن ترتيب الحروف في الكلمة يؤدّي إلى تحديد دلالتها، وبالتّالي تعكس أثرها عند المتلقي.

أما الأصوات الثّلاثة الّتي ذكرها:

1ـ صوت النّفس: وهو أوّل الأصوات الثّلاثة، نجد الرّافعي هنا "لا يزال على صلة بالتّركيب الحرفي للكلمة، فيشير إلى الإيقاع الصوتي للحروف وما قد يوحي به من معان ويشير إليه من دلالات لها في النفس والحس معا أعظم التأثير"[20] أي أن الإيقاع الصّوتي للحروف التي تتألّف منها الكلمات، يؤدّي معاني تترك وقعا في نفس المتلقي فتؤثر فيه، ويعرّف صوت النّفس على أنّه "الصّوت الموسيقي الّذي يكون من تأليف النّغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقة

متساوقة وعلّة نضد متساو، بحيث تكون الكلمة كأنّها خطوة للمعنى في سبيله إلى النّفس، إن وقف عندها هذا المعنى قطع به"[21] وهو أحد الأصوات الثّلاثة الّتي تساهم في تركيب نسق النّصّ وبالتّالي تعرف أسباب الاتّصال بين اللّفظ والمعنى، وبين المعنى والصّورة النّفسيّة فتنعكس هذه الصّورة عند المتلقّي، لتكون الكلمة خطوة للمعنى إلى النّفس بما يحمله اللّفظ من أصوات موسيقيّة، والواضح أنّ الرّافعي يذهب إلى المستوى الصّوتي للكلمة، فهي بمقاطعها الصوتية المرتّبة والمؤتلفة التّركيب، تخرج للدّلالة عن شيء معيّن، يجعل القارئ يستوعبه ويتفاعل معه، وبالتّالي يتمكّن من التّواصل مع النّص بأكمله.

2ـ صوت العقل: ويعرفه بأنّه "هو الصّوت المعنويّ الّذي يكون من لطائف التركيب في جملة الكلام، ومن الوجوه البيانيّة التي يداور بها المعنى، لا يخطئ طريق النفس من أي الجهات انتحى إليها"[22]ويرمي الرّافعي من خلال هذا القول إلى أنّ الكلمات عندما تركّب تركيبا محكما، تؤدّي معنى واضحا، يصل إلى المتلـقّي فيقع في نفسه، ويحرك ذاته مما يجـعله يتفـاعل مع هذا النّص، فالمستوى التّركيبيّ للكلمات في النّصوص يكمن في البناء المحكم للكلمة، وهو بذلك "يمهد لبيان أهمية الكلمة القرآنية ووضعها في محلها اللائقة به" [23].

3ـ صوت الحسّ: وهو ثـالث الأصوات" وأبلغهن شأنا، لا يكـون إلا من دقـة التّصـوّر المعنـويّ، والإبداع في تلوين الخطاب، ومجاذبة النّفس مرّة وموادعتها مرّة، واستيلائه على محضها بما يورد عليها من وجوه البيان، أو يسوق إليها من طرائف المعاني، يدعها من موافقته والإيثار له كأنّها هي الّتي تريده وكأنّها هي الّتي تحاول أن يتّصل أثرها بالكلام، إذ يكون قد استحوذ عليها وانفرد منها بالهوى والاستجابة".[24]

اعتبر الرّافعي أنّ هذا الصّوت هو أبلغ الأصوات شأنا، فما يقع في نفس المتلـقي من وجوه البيان، وما يسوقه إليها من طرائف المعاني يجعلنا نفهم أنّ ما يقصده الرّافعي من هذا الصوت وهو الصورة البلاغية، ويؤكّد هذا الفهم قوله: " وعلى مقدار ما يكون في الكلام البليـغ من هذا الصّوت، يكون فيه من روح البلاغة"[25] فكلمات القرآن محكمة الوضع، خفيفة الوقع على النفس والسّمع وبذلك، تميل النفس إليه فلا تضيق به ولا تنفر منه ولا ينتابها الملل، فكلّ كلمة ما دامت من القرآن فهــي في موضعها من بعض إعجازه، وعليه يأتي دور الجمل بعد الحديث عن الحروف والكلمات.

3.الصّياغة والبناء:

تعتبر هذه المرحلة هي الأخيرة من مراحل النّظم عنده متمثّلة في الجمل وكلماتها، ويعرف الجـملة على أنّها" مــظهر الكلام، وهي الصّورة النّفسيّة للتّأليف الطّبيعي، إذ يحيل بها الإنسان هذه المادّة المخلـوقة في

الطّبيعة، إلى معان تصوّرها في نفسه أو تصفها، ترى النّفس هذه المادّة المصوّرة وتحسّها، على حين قد لا يراها المتكلّم الّذي أهدفها لكلامه غرضا ولكنه بالكلام كأنه يراها"[26]فالجملة هي الشاملة التي ألمت بالحروف وأصواتها والكلمات، وبذلك تعتبر الوحدة الكبرى للنص، فاتساقها وانسجامها يحيل إلى اتساق النص وانسجامه، وبالتالي يبلغ المعنى إلى المتلقي فهذه المادة المصورة التي تراها النفس وتحسها يجمعها روح التركيب التي انفرد بها نظم القرآن، فينظر في التركيب إلى"نـظم الكلمة وتأليفها، ثم إلى تأليف هذا النظم: فمن ههنا تعلق بعضه على بعض، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة؛ هي صفة إعجازه في جملة التركيب كما عرفت"[27] معنى ذلك أنّ للنظم روحا، تتمثل في التركيب المحكم الذي انفرد به القرآن الكريم، والذي لم يرد في كلام العرب على الرغم من أنّهم أهل البلاغة والفصاحة، لذلك سحرهم بهذا النّظام الصّوتي الموسيقي العجيب.

ثالثا ـ **النّص عند الرّافعي:**

لقد تعدّدت دلالات النّص واختلفت عند العلماء، فهو "النّسيج العام الذي يتألف من خيوط متناسقة على هيئة مخصوصة، ويتعدى الجملة باعتباره سلسلة من الجمل يضبطها مبدآن مبدأ الوحدة ومبدأ الاتساق والتناسق"[28]وقد اعتمدنا هذا التعريف للوقوف على نظـرة الرّافـعي للنّص، وهي نظرة تجزيئيّة وتدريجيّة للوصول في الأخير إلى الوحدة الكاملة، فكانت البداية مثلما ذكرنا آنفا الحروف وأصواتها ثم الكلمات وحروفها فالجمل وكلماتها.

بعد التّحليل الدّقيق الّذي وضعه الرّافعي في العناصر التي تتبعها بالدّراسة والتّحليل فإنّه يرى أن" طريقة نظم القرآن تجري على استواء واحد في تركيب الحروف، باعتبار من أصـواتها ومخـارجها، وبالتمكين للمعنى بحس الكلمة وصفتها، على حسب مواقع الكلمات، لا يتـفاوت ذلك ولا يختل، فمن أين يدخل على قارئه ما يكد لسانه، أو ينبو بسمعه، أو يفسد عليه إصغاءه.."[29] يبيّن هذا الاتّساق في الحروف والكلمات والجمل أنّه أخذ يركّب كل ما هو متساوق مؤتلف مع بعضه ليصل إلى عصارة كل العناصر، وأثرها في نفس المتلقّي جملة وتفصيلا.

تبدو نظرته للنصّ بتلـك الشّمولية واضحة في قوله: "فأنت مادمت في القرآن حتى تفـرغ منه، لا ترى غير صورة واحدة من الكمال وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب وموضع التّأليف وأنواع التّصوير وأغراض الكلام، كأنّها تفضي إليك جملة واحدة حتى تؤخذ بها ويغلب عليك شبيه في التّمثيل مما يغلب على أهل الحسّ بالجمال إذا عرضت على أحدهم صورة من صوره الكاملة"[30] وبذلك يؤكّـد

الرّافعي على أنّ النّصّ القرآني مترابط ومنسجم، وبناؤه محكم ومتماسك، فرغم أن لحروفه وكلماته سحر وجمال إلا أن جماله يكمن في وحدته من بدايته لنهايته فهو ككل لحمة واحدة.

رابعا ـ تناسب الأجزاء:

يرى الرافعي أنّ ألفاظ القرآن الكريم لا تصيب لها في نفسك غير اللّذة والحلاوة والانسجام العذب وذلك كيفما تأمّلتها أو أدرتها، وإن وافقتها أو اعترضتها فسيصيبك منها ما يخالط الروح والإحساس، وتمتزج بجوارحك فلن تكون معها إلا على حالة واحدة.

فألفاظ القرآن الكريم تختلف"ولا تراها إلا متفقة، وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة، وتذهب في طبقات البيان وتنتقل في منازل البلاغة، وأنت لا تعرف منها إلا روحا تداخلك بالطرب، وتشرب قلبك الروعة"[31]،وهو بذلك يشير إلى انسجام النص القرآني وتماسك بنائه، بحيث يبدو كله "قطعة واحدة يكون فيها الكلام متحدرا تحدر الماء المنسجم، وهذا الجامع بين الأجزاء هو الذي سماه الإمام البقاعي بالأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن"[32]فآي القرآن الكريم كالكلمة الواحدة في ارتباطها بعضها البعض، بناؤها محكم ومنتظم ومعانيها متسقة ومؤتلفة، والكلمات متلائمة في التركيب مع بعضها، وحسن جوارها لما قبلها وما بعدها، فلا يمكن تبديلها أو تغييرها حتى لا يتغير النظم ويذهب رونقه.

خامسا ـ التأليف:

يرى الرافعي بأن ألفاظ القرآن في تركيبها وطريقة استعمالها قد قفزت فوق اللغة، ولا يمكن لأحد من البلغاء أن تقع له في كلامه وإن اتفقت هذه الأخيرة بحروفها ومعانيها، ذلك لأنها في "القرآن تظهر في تركيب ممتنع فترَف به، ولهذا ترتفع إلى أنواع أسمى من الدلالة اللغوية أو البيانية التي هي طبيعية فيها...ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيء بعضها لبعض ويساند بعضا، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي"[33] وهنا يتحدث الرافعي عن الائتلاف بين الحروف أنفسها، والكلمات وعلاقاتها ببعضها ودورها في التركيب المحكم، وهذا التلاؤم عائد إلى أصوات الحروف التي تحمل إيقاعا موسيقيا في نظمها.

سادسا- الإيقاع الموسيقي في النص:

إن الملفت للنّظر في كتاب الرّافعي لمسة خاصة اختارها، وتوزّعت في دراسته للنّظم تتمثّل في الإيقاع الموسيقي ومدى تأثيره في المتلقي، فالكاتب كان صاحب ذوق رفيع وخاصّة في تعامله مع النّصّ القرآني،

فوقعت ألفاظ القرآن في نفسه على شكل مقاطع موسيقية، زخّت له حروفها وأصواتها نغما متناسقا منسجما، فتطرب الأفئدة في تماسكها، وتذهل العقول في تركيبها، وإن كان القرآن أرفع من الموسيقى إلاّ أنّ الرافعي كان يتذوّق النّصّ القرآني بجوارحه. وبيّن بأنّ العرب قد انتبهوا لذلك مع عجزهم عن الإتيان بمثله، "فلما قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته وكلماته في جمله، ألحانا لغوية رائعة،كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة"[34].

يقصد الرّافعي أن بلاغة الصوت في لغة الموسيقى التي تقع في نفس المتلقي، وذلك عائد إلى قوة ائتلافه، ودقة تركيبه وترتيبه، فمن يسمعه" يسمع ضربا خالصا من الموسيقى اللغوية في انسجامه واطراد نسقه واتزانه على أجزاء النفس مقطعا مقطعا ونبرة نبرة كأنها توقعه توقيعا"[35].

لقد وجد الرافعي في الإعجاز بالنّظم عن طريق الإيقاع الصّوتي مجالا واسعا للتّماسك النّصّي فالإعجاز يكمن في الاتّساق بين الحروف وأصواتها، إذ تعتبر مادّة الصّوت مظهر الانفعال النفسي والذي يعتبر بدوره سببا في تنوع الصّوت، وتناسق وائتلاف الحروف في كلماتها، ونسج الجمل بكلماتها، وفي تنسيق الآيات في السّور أو السّورة الواحدة نظاما صوتيّا يخترق الأسماع والنّفوس وبذلك يكون قد وقف على بعض معايير النّصية السّبعة الّتي نادى بها "روبرت دي بوجراند" (Robert de beaugrand) والمتمثّلة في الاتّساق الّذي يندرج ضمن الائتلاف بين الحروف في اللّفظة المفردة، والكلمات التي تتشكّل منها الجمل، والانسجام القائم على تلك العلاقات الدّلاليّة بين العناصر اللغويّة، حيث تجد اللّفظة القرآنيّة تحمل دلالتها في ذاتها قبل ورودها في السّياق والمقبوليّة بإظهار الدّور الكبير للمتلقي في تعامله مع الخطاب القرآني، وتفاعله مع ذلك الإيقاع الصوتي المميز النّابع من الإعجاز الموسيقيّ في القرآن الكريم.

خاتمة:

حاولت هذه الورقة البحثيّة تسليط الضّوء على واحد من أهم المؤلفات لشخصيّة فذّة دافعت عن القرآن ممن يتحاملون عليه، وهو"إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة" لمصطفى صادق الرّافعي، ومن خلال البحث توصّلنا إلى النّتائج التّالية:

ـ يبدو بأنّ الرّافعي قد تأثّر بعبد القاهر الجرجاني في تأليفه لإعجاز القرآن.

ـ تناول الرّافعي النظم حيث انتقل من الجزء إلى الكل، فبدأ بالحروف وأصواتها، ثم الكلمات وحروفها وصولا إلى الجمل وكلماتها.

ـ أثار الرّافعي فكرة الإعجاز بالنظم عن طريق الإيقاع الصّوتي في الحروف وأصواتها، متنبّها في ذلك إلى الوظيفة الدّلالية للصوت وأثره في النفس البشرية .

ـ قسم الرّافعي الكلمة إلى ثلاثة أصوات في تطرّقه للكلمات وحروفها: صوت النّفس، صوت العقل، صوت الحسّ، فأمّا الأوّل فيمثّل المستوى الصّوتي، وأمّا الثّاني فيعنى بالمستوى التّركيبي، وأمّا الثّالث فهو الصّورة البلاغيّة التي ترتسم في ذهن المتلقّي وبذلك فالكلمة القرآنيّة تعدّ أية من آيات الإعجاز.

ـ الجملة حسب الرّافعي هي الشّاملة لمعنى الكلام وتعتبر مظهرا من مظاهره، وبها يرتسم المعنى عند المتلقّي.

ـ يعدّ النّصّ في الفكر الرّافعي ذلك الكلّ الموحد الذي تتناسب أجزاؤه، وتتآلف عناصره وتنسجم وخاصة وهو يدرس النّصّ القرآني، فتحدّث عن الإيقاع الموسيقي لما له من وقع في نفسيّة المتلقّي، ويجعله يتفاعل مع هذا النّصّ تفاعلا كبيرا، وهذا ما حدث حتى مع ألد أعداء الإسلام.

ـ لم تبتعد الدّراسة المستفيضة التي قدمها من الوقوف على ما آلت إليه لسانيات النص الحديثة وفق تعاملها مع النصوص كبنية كبرى في التحليل، وذلك باستخراج أهم معايير النصية التي يبنى عليها النص لتكتمل صورته، ويجد المتلقي ضالته في التفاعل معه.

هوامش:

[1] ـ صلاح الدين محمد عبد التواب، النقد الأدبي، دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، الكتاب الثاني، دار الكتاب الحديث، 1423هـ ـ 2003م، ص 54.

[2] ـ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربية، بيروت،1410هـ ـ 1990م،ص14.

[3] ـ المرجع السابق،ص32.

[4] ـ وليد محمد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، ط1،دار الفكر، 1403هـ ـ1983م،ص 6."

[5] ـ صلاح الدين محمد عبد التواب، النقد الأدبي، دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، ص44.

[6] ـ أبو بكر، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني،تعليق: محمود محمد شاكر،ص55.

[7] ـ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص209.

[8] ـ المرجع السابق،ص220.

[9] ـ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص211.

مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 4 السنة: 2021
ص: 657 - 668 E ISSN: 2600-6634 /ISSN:2335-1586

[10] - مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج1، ط1،دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، 1421هـ ـ2000م،ص85.

[11] - صلاح الدين محمد عبد التواب، النقد الأدبي دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن،ص45.

[12] - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص215 ـ 216.

[13] - المرجع نفسه،ص224.

[14] - المرجع نفسه: ص212.

[15] - المرجع نفسه، ص213.

[16] - المرجع نفسه، ص218.

[17] - المرجع نفسه،ص215.

[18] - المرجع نفسه، ص216.

[19] - المرجع نفسه، ص220.

[20] - صلاح الدين محمد عبد التواب، النقد الأدبي دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن ،ص48.

[21] - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص221.

[22] ـالمرجع نفسه،ص 221.

[23] - صلاح الدين محمد عبد التواب، النقد الأدبي، دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن،ص 48.

[24] - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 221.

[25] - المرجع نفسه،ص 221.

[26] - المرجع نفسه، ص236.

[27] - المرجع نفسه، ص 245.

[28] - عبد الرحمن بو درع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب، نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، بحث مقدم لتطوير الدراسات القرآنية، 1434هـ ـ 2013م،ص16.

[29] - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية،ص 242.

[30] - المرجع السابق، ص241.

[31] - المرجع السابق، ص241.

[32] - عبد الرحمن بودرع، في لسانيات النص، ص35.

[33] - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية،ص226 ـ 227.

[34] - المرجع السابق،ص 214.

[35] - المرجع السابق،ص 213